

يعكف عليها منذ أربع سنوات فريق من الباحثين السوريين

موسوعة الآثار السورية مشروع رائد للتوثيق وتوفير المعلومات الشاملة

دمشق - سلوى صالح

يعكف فريق من الباحثين

السوريين منذ أربع سنوات حتى الآن على إنجاز أول موسوعة من نوعها في العالم العربي، تصدرها هيئة الموسوعة العربية في دمشق لتوثيق التراث الأثري في سورية بلغة علمية مكثفة ومختصرة وواضحة يفهمها أي قارئ، بغية اطلاع المهتمين والباحثين الآريين على آثار سورية القديمة وإثارة المعلومات اللازمة لأي موقع أثري بحسب التسلسل الألف بائي مع الصور والخرائط التوضيحية.

التقى عددا من الباحثين القائمين على هذه الموسوعة التي يتوقع أن يصدر الجزء الأول منها خلال أيام فأوضحوا أنها تحوي كل ما يتعلق بحضارة الملوحة القديمة وفيها فلسطين والأردن ولبنان، من مواقع ومدن أثرية وشخصيات تاريخية مثل الملوك والقادة العسكريين والأساطير القديمة، وكل ما يتعلق بالتراث، مع أسماء المراجع لمن يبحث الاستفادة.

الدكتور عمار عبد الرحمن، رئيس موسوعة الآثار السورية، يقول إنه عقب اكتمال الموسوعة بأجزائها العشرة، بعد ثلاث سنوات مديدة، سترتجى إلى الإنكليزية والفرنسية لتزويد المتاحف ومعاهد الآثار وخبراء الآثار في العالم لأهميتها في البحث العلمي المهني لدى المتخصصين، علماً أن كل جزء

يحتوي على 50 صفحة قطعاً كبيراً.

يتوزع العمل في الموسوعة على أربعة أقسام، ولكل قسم باحث مسؤول، فهناك قسم من التاريخ الذي يترأسه عبد الرحمن، وقسم العصور التاريخية الذي يترأسه الدكتور محمود حمود، وقسم العصور الكلاسيكية ويترأسه الدكتور مامون عبد الكريم، أما قسم العصور الإسلامية يترأسه الدكتور غزوان ياعي.

من ناحية، يقول ياعي، مدير البحث العلمي في مديرية الآثار، أنه يعني بمجمل المنتج الأثري للحضارة الإسلامية في سورية

والمتعدد من عام 636 ميلادي، أي فترة فتح دمشق حتى عام 1919، عندما خرج العثمانيون من سورية، مشيراً إلى أن هذه الفترة غنية بالمنتج المعماري والفني الذي يتميز بالضخامة والجودة لنسبة تخطيط المباني ووظائفها، أو لنسبة الفنون المعمارية فيها.

ويشير ياعي إلى حرص فريق العمل على أن تضم الموسوعة مدخل باسماء معظم المباني الأثرية في سورية، كذلك مدخل بالفنون الصغرى التي تميزت بها سورية مثل الخزف والخشب وأسماء الحرف والصناعات التي اشتهرت وانتشرت في سورية لكل العالم مع مراعاة أن يكون الكاتب متخصصاً في هذا المجال يدافع الحرص على رفع سوية الأبحاث لتكون مرجعاً



جميع المهتمين والدارسين لآثار سورية، ففي هذه المداخل ثمانون في المئة من الأبحاث الجديدة التي تنجز للمرة الأولى ولا تتوافر في المراجع أي معلومة عنها.

بأى لغة وهنا تشكل الموسوعة المصدر الوحيد عن هذه المباني الأثرية والفنون والحرف المرتبطة بها. للمرة الأولى تنشر في هذه الموسوعة مخططات وصور لأكثر المباني الأثرية والمواقع المذكورة، علماً أن إنجاز المخططات المذكورة، ومتعب، لذا يشكل العمل هذا زيادة مهمة لعلماء الآثار، بحسب الدكتور

ياعي. أما الدكتور محمد الزين الخير العلمي في قسم الآثار الكلاسيكية فيؤكد أن سورية تعج بالآثار التي تعود إلى العصور الكلاسيكية الممتدة إلى ألف سنة من تاريخ سورية، أي منذ قدوم الإسكندر المقدوني حتى الفتح العربي الإسلامي، وهي كثيرة ومتنوعة مثل المدن الأثرية في أفاميا وتدمر وشهباء ومواقع أخرى كثيرة تعود إلى تلك العصور، ويبينها أنطاكية العاصمة يوم كانت سورية تشمل بلاد الشام كلها، لذا فإن آثار بحلبك والبراء وجسر شمس إلى آثار سورية بامتياز. وهناك الأقنية الرومانية والطراقات والمعابد وكلها تدخل في إطار الموسوعة، إضافة إلى النقود والأدوات الفخارية التي تزدهر بها أجنحة الآثار الكلاسيكية في متاحف سورية.

لفت الزين إلى الصعوبات التي تواجه فريق العمل قائلاً إنها صعوبات أتية ناجمة عن ظروف الأزمنة مثل تعذر الوصول إلى المواقع الأثرية وصعوبة التواصل مع الباحثين في المناطق المختلفة من سورية، مشيراً إلى أن التعاون قائم ووثيق مع الاختصاصيين في مديرية الآثار ليس على نحو وظيفي وإنما على نحو شخصي كذلك التعاون مع أقسام الآثار في الجامعات السورية. ويتوقع الخير العلمي أن تلقى الموسوعة اهتماماً كبيراً من الأوساط العلمية والأثرية والجامعية والسياحية فستكون مرجعاً لكل متخصص، ولكل من يعمل في هذا المجال، وهو مشروع رائد يجب تعريف الناس بأهميته إذ لا مثيل له في العالم العربي، شأنه شأن الموسوعة العربية التي كانت سببا علمياً وثقافياً وحضارياً لسانر أبناء هذا الوطن.

مدير المكتب الفني، غسان عيسى، تحدثت عن عملية الإخراج فهو يتسلم الأبحاث الجاهزة مع الصور والمخططات والخرائط ويعيد رسم المخططات على برنامج كمبيوتر في برنامج لتصميم أكثر وضوحاً، مع التخلص من الكتابات الأجنبية عليها وترجمتها إلى كتابات عربية، بالتنسيق مع قسم الآثار، توثيقاً للدقة العلمية.

أما بالنسبة إلى الخرائط فيقول عيسى إنه تم التعاقد مع الرسام بسام حميدي الذي يرسم الخرائط وفقاً للمقاييس الجغرافية المعتمدة

ويحدد عليها أمكنة المواقع مثل موقع خان أسعد باشا في دمشق مثلاً. ثم يأتي موضوع الصور فتمت المراجعة وقراءة البحث لاختيار الصور المناسبة للموضوع بمساعدة خبير يحدد القيم الطبيعية للصورة لنسبة الدقة، وثمة صور تستبدل أو تُلغى إذا لم تستوف المعايير المطلوبة، وصور أخرى تتم معالجتها فنياً لتكون القيم الطبيعية مختلفة عن قيم الرؤية على شاشة الكمبيوتر كي تتميز الصورة لحظة الفرز بالدقة والجودة العالية. ويشير عيسى إلى أن بعض الصور تؤخذ من المواقع الإلكترونية لقطع أثرية سورية مسروقة ومعروضة في متاحف عالمية مثل اللوفر في فرنسا والميتروبوليتان في أميركا، فيستفاد من صورها الموثقة على الإنترنت لإنهاء البحث بها.

بعد انتهاء العمليات الفنية وتصميم الأغلفة على يد مصمم خاص في المكتب الفني، ترسل المواد إلى المطبعة وتعاد بعد الطبع الأولى إلى المكتب الفني للتدقيق والمطابقة مع الأصول، ثم تطبع مطبعتها النهائية وبوتيرة ممتازة لنسبة الورق الصقيل والطباعة الملونة الدقيقة والغلاف الأنيق، ما يجعلها جديرة بتزيين أكبر المكتبات المتخصصة في العالم، فضلاً عن قيمتها العلمية.

تقيم المديرية العامة للآثار والمتاحف السورية عند الحادية عشرة من صباح اليوم ورشة عمل تحت عنوان «حصار الأضرار التي تعرضت لها المباني الأثرية في معلولا»، في القاعة الشامية في المتحف الوطني في دمشق. وتتضمن الورشة التي تقام تحت رعاية وزارة الثقافة بالتعاون مع محافظة ريف دمشق عرضاً موجزاً لأهم أعمال التقييم التي جرت في معلولا ونتائجها وأهم مبانها الأثرية وأعمال الترميم التي تمت فيها، إضافة إلى الأضرار التي تعرضت لها المباني الأثرية المسجلة في البلدة. كما تعرض الورشة للدور الذي قامت به لجنة حماية معلولا قبل الأزمة وتطلعاتها المستقبلية لإعادة تأهيل البلدة واتفق تسجيلها على لائحة التراث العالمي ومعرض صور ضوئية للمباني الأثرية في معلولا ومشاركة شعرية من شعراء معلولا.

الكتب الثقافية

آثار معلولا ورشة عمل في المتحف الوطني السوري



تقيم المديرية العامة للآثار والمتاحف السورية عند الحادية عشرة من صباح اليوم ورشة عمل تحت عنوان «حصار الأضرار التي تعرضت لها المباني الأثرية في معلولا»، في القاعة الشامية في المتحف الوطني في دمشق. وتتضمن الورشة التي تقام تحت رعاية وزارة الثقافة بالتعاون مع محافظة ريف دمشق عرضاً موجزاً لأهم أعمال التقييم التي جرت في معلولا ونتائجها وأهم مبانها الأثرية وأعمال الترميم التي تمت فيها، إضافة إلى الأضرار التي تعرضت لها المباني الأثرية المسجلة في البلدة. كما تعرض الورشة للدور الذي قامت به لجنة حماية معلولا قبل الأزمة وتطلعاتها المستقبلية لإعادة تأهيل البلدة واتفق تسجيلها على لائحة التراث العالمي ومعرض صور ضوئية للمباني الأثرية في معلولا ومشاركة شعرية من شعراء معلولا.

افتتاح «مهرجان صور المسرحي» في سينما الحمراء



تسجل صور للمرة الأولى في تاريخها مهرجاناً عربياً ودولياً بمشاركة تونس والجزائر وليبيا والعراق ومصر والمغرب وكورديستان العراق وفلسطين وسورية وفرنسا وإسبانيا، وافتتح المهرجان بالتزامن مع افتتاح «سينما الحمراء» بعد إقبال 30 عاماً، وانطلق كرفال الشارع من وسط مدينة صور بمشاركة الوفود المشاركة وحشد من أبناء صور والجنوب. وفي الساعة السادسة مساءً تم افتتاح الرسمي بعرض فيلم قصير عن مشروع إعادة تأهيل سينما الحمراء من قبل «مسرح اسطنبولي»، وشارك في الافتتاح الرسمي ممثل عن وزير الثقافة اللبنانية حسام الصباح وممثل عن نقابة الفنانين في لبنان علي كش، بحضور تقيب الفنانين الفلسطينيين محمد الشولي، وحضر ممثل عن بلدية صور الأستاذ جورج غنيم. وشارك النواب علي خريس وعبدالمجيد صالح ورئيس بلدية صور حسن دبوب في التظاهرة المسرحية التي شهدتها المدينة للمرة الأولى رغم غياب الدعم للجهة المنظمة للمهرجان. وفي ختام حفل كرم مسرحيون لبنانيون بينهم فنان حميصي وعائدة صبرا ود. جميل بسام وحسام الصباح وسواهم.

افتتحت العروض مسرحية «بخور عصري» للمخرج الجزائري هارون كيالكلي، ويستمر «مهرجان صور المسرحي» من 12 من حزيران الجاري.

صباح شعري في ثقافي مرميتا

تضمنت «الصباحية الشعرية» التي أقامها المركز الثقافي في مرميتا في محافظة حمص ضمن الأسبوع الثقافي الذي ينظمه المركز العديد من القصائد الشعرية المتنوعة من حب الوطن وتضحيات الشهداء وقصائد الغزل. وشاركت الشاعرة عبير سليمان من اللاذقية بعدد من القصائد من ديوانها «رسالة من بيدق ميت»، التي قصائد تقع في حب الوطن والتضحية لأجله. وتقول سليمان إن مشاركتها تعتبر عن حبتها الكبير للشعر ولدعم الأنشطة الثقافية في كل مكان من سورية، لما له من دور كبير في منح الحياة طابع عذب وإضفاء الجمال وزيادة الوعي لدى المجتمع.

وعبرت عن حبها للوطن وعن تصميم شعبنا على العيش بعزة وكرامة رغم مرارة السنوات الثلاث الماضية وقساوتها. وألقى الشعر والمحامي كمال كرم من مرميتا العديد من القصائد باللغة المحكية وقصائد الزجل عن القضايا الاجتماعية التي خلفتها الأزمة في سورية.

عبرت أوديت دب، مديرة المركز الثقافي في مرميتا، عن أهمية هذه الأنشطة الثقافية والمثقفات الأدبية في تبادل الثقافة وتنشيطها وعودة الحياة الطبيعية إلى المدن والقرى.

دراسة في بنية التحولات في رواية «ليالي ألف ليلة» لنجيب محفوظ

1/2

ولذلك فإن موضوع الغويات هو اللغة التي تجعل الكلام ممكناً، فاللغة «هي الجانب الاجتماعي من الكلام، وتقع خارج نطاق الفرد الذي لا يستطيع مطلقاً أن يخلقها أو يغيرها. إنها توجد بحسب حكم كونها نوعاً من التعاقد بين الأفراد في مجتمع ما».

يتضمن التمييز بين اللغة والكلام تمييزاً أبعد هو التمييز بين «الدراسة المحاكية (السيكولوجية) للغة ما (التي تركز على لغة ما بوصفها نظاماً في زمن معين: حاضر أو ماضي) والدراصة التاريخية (الديكورية) التي تفتحص التغيرات التاريخية للعناصر الخاصة في اللغة: فلكي تفهم لغة ما بوصفها نظاماً فاعلمين أن تفحصها بطريقة محاكية، محاولاً أن توضح القواعد والمواضع في النظام الذي يجعل الأشكال والمعاني ممكنة في اللغة».

إن أي لغة، في ما يطرَح سوسور، هي نظام أو نسق للعلامات. هذا النسق أو النظام يجب أن يدرس تزامنياً (أي بطريقة محاكية) عند نقطة زمنية معينة وليس تعاقبياً (أي بطريقة تاريخية تطورية). والعلامة اللغوية تتكون، أو يجب النظر إليها على أنها مكونة، من «دال» (صورة صوتية أو معادلات الكتابي أو شكل ما)، و«مدلول» (مفهوم أو معنى أو صورة ذهنية): ومن ثم فالعلامة اللغوية كيان نفسي ذو وجهين (الدال والمدلول) متحدتين بطريقة وثيقة، ويستعدي وجود أحدهما وجود الآخر بالضرورة. والعلاقة بينهما هي علاقة اعتباطية مؤسسة على العرف والمواضع وليست على التشابه الطبيعي.

إذا كانت أي لغة، بحسب تصور سوسور، هي نظام أو نسق من الاختلافات فإن ما يجعل كل عنصر في هذه اللغة ما يكونه هو ما يمنحه كيانه هو الاختلافات والتباينات بينه وبين عناصر أخرى داخل نظام تلك اللغة. إن أي علامة لغوية تكمن خصوصيتها الدقيقة في أن تكون ما لا تكونه علامات أخرى داخل النظام، أو كما يقول سوسور: «في اللغة لا يوجد سوى الاختلافات فحسب».

هذه هي المبادئ العامة لنظرية سوسور اللغوية التي طبقت في مجالات معرفية مختلفة، فمن خلال تطبيق هذه النظرية، يمكن أن ترى أسطورة ما، أو مباراة مصارعة، أو نسق قرابة قلبية، أو قائمة طعام في مطعم، أو لوحة زيتية، بوصفها نسقاً من العلامات، وسوف يحاول التحليل البنوي أن يعزل مجموع القوانين الكامنة التي يتم بمقتضاها اختلاف هذه العلامات في معان. وسوف يتجاهل إلى حد كبير ما «تقوله» العلامات فعلياً، ويركز بدلاً من ذلك على علاقاتها الداخلية مع بعضها البعض».

إن النشاطات الإنسانية والمعرفية يتم تأملها مطلقاً يتم تأمل اللغة بوصفها نسقاً للعلامة، فإذا كانت مهمة اللغوي أن «يصف نظام القواعد، والتقاليد أو المواضع، والممارسات التي تمكن الجنس البشري



الواثق للطبقة المتوسطة في منتصف القرن التاسع عشر بشأن اللغة ثبتت نفسها في العالم فعلياً؛ وكيف كانت الكتابة ممكنة من دون وجود إطار من الاعتقاد الجماعي المشترك ليعود المرء، وكيف كان ممكناً أن يعاد ابتكار إطار مشترك مثل هذا في ظل الاضطراب الإيديولوجي للقرن العشرين». هذه الأسئلة التي يطرحها إيجلتون تشكل في ما أظن الشروط التاريخية والمادية للكتابة الحديثة، وهي التي يعود إليها وضع مشكلة اللغة على النحو الذي يعبر من غير شك عن أزمة اجتماعية، تلك الأزمة دفعت الكتابة إلى الانتفاخ على ذاتها «في فعل نرجسي عميق، لكنها مزعجة ومخلقة بجرم اجتماعي يتمثل في عدم جدواها الخاص، والنواطظ بطريقة يتعدر اجتنابها مع هؤلاء الذين اختزلوها وانقصوها إلى سلعة غير مرغوبة، ومع ذلك فإنها تجتهد لكي تحرر نفسها من تلوث المعنى الاجتماعي».

إن البنوية يمكن رؤيتها ضمن إطار مشكلة الإحساس باللغة التي أشرت إليها سلفاً، وهي تخص معارف مبنية في العلوم الإنسانية، وما يجمعها تحت ذلك المسمى على وجه العموم هو استخدام لغويات فريديان دي سوسور، أو تطبيق النظرية اللغوية عند سوسور على موضوعات ومعارف ونشاطات أخرى غير اللغة. إن البنوية في عبارة مختصرة وأثيرية طرحها فريدريك جيمسون هي «إعادة التفكير في كل شيء مرة ثانية بالطروحات علم اللغة».

في محاضراته عن علم اللغة العام التي ألقاها ما بين سنة 1906 وسنة 1911، ونشرت بعد وفاته عام 1916، يميز سوسور تمييزاً أساسياً بين «اللغة» و«الكلام»، ويعده تمييزاً بين «ما يكون اجتماعياً وما يكون فردياً». وبين ما يكون جوهرياً وما يكون تابعاً على وجه التقريب».

أما ما يكون اجتماعياً وجوهرياً هو اللغة أو النظام وما يكون فردياً وتابعا هو الكلام،

تسعى، على ما يطرَح ستيبل، إلى «أن تجد أصل المعنى في الذات»، أو على ما يطرَح هاراري أن تلك المقاريات «تدعي أنها تمنح الوصول المباشر للمعنى من خلال التحليل الوصفي لما نتخذه أو ندرکه أو نتلقاه»، إن المعنى يكمن في تجربة الذات أو تلقيها للعلم أو وعيها به. أما البنوية فقد «تخلت عن الذات وفعل التناول ... والمعنى يكمن في اللغة ذاتها». أراحت البنوية الذات عن مركزها، لكن هذه الإزاحة لم تكن سوى نوع جديد من التمركز، أي مركزية اللغة أو مركزية «البنية» «قبلاً من وصف التجربة». فإن الهدف كان تعيين البنوية/ الكامنة/ الناوية التي تجعلها ممكنة، بدلاً من الوصف الظاهري للوعي، التمسّت البنوية تحليل البنيات التي تشتمل بطريقة لاواعية (مثل بنيات اللغة والنفس والجمع)؛ وبسبب الكيفية التي يكون المعنى منتجا من خلالها، فإن البنوية تعاملت مع القارئ عادة بوصفه مجموع الشيفرات الكامنة/ الناوية التي تجعل المعنى ممكناً».

إن التعارض بين البنوية والظاهرية يمكن أن يرى بوضوح من خلال فقرة الإزاحة والإحلال، إزاحة الذات عن مركزها، أو تدمير مركزية الذات وإحلال مركزية اللغة أو البنية أو الصوت، أو كما يطرَح إيجلتون، إن البنوية لديها مشكلة مع الذات الفردية كما يقال، فإن ذلك يعني: «الذات تم القضاء عليها بطريقة فاعلة، مختزلة إلى الوظيفة لبنية موضوعية ... إن الذات الجديدة هي النسق ذاته في الحقيقة».

لكن لا بد من الانتباه إلى أن الظاهراتية والبنوية رغم تعارضهما، ثمة أمر مشترك بينهما وهو وضع «الموضوع» بين أقواس، فبين بلا شك تجاهل الشروط المادية والتاريخية لإنتاجه أو إعادة إنتاجه، ويتم اختزاله إلى حالة الظاهراتية، أو إلى نسق مغلق من القواعد كما في حالة البنوية. تهرب البنوية من التاريخ إلى اللغة أو إلى النسق المغلق. ويبدو أن الحادثة اللغوية، جلبت هذا التصور إلى الوجود، فالبنوية، على ما يشرح إيجلتون، «بدأت تحدث عندما أصبحت اللغة اشتغالا منسطقاً إلى عقل المفقين، وحدث هذا بدوره بسبب الإحساس بالشعور بأن اللغة في أوروبا الغربية في أواخر القرن التاسع عشر وفريديك جيمسون كانت تعاني آلام أزمة عميقة. فكيف كان على المرء أن يكتب في مجتمع صناعي أصبح الخطاب فيه مختزلاً أو منقوصاً إلى مجرد أداة للعلم والتجارة والإعلان والبيروقراطية؛ وأني جمهور كان على المرء أن يكتب له مهما يكن الأمر بوصفه جمهوراً مشبعاً بالقرأة العامة المقدمة إليه من ثقافة جماهيرية تهمة للربح ومسكنة؛ وهل كان ممكناً لعل آدمي ما أن يكون في آن واحد ساعاً فنية وسلعة في السوق المفتوحة؛ وهل كان ممكناً أن تشارك بأي كيفية في الإيمان العقلاني أو الإمبريقي

كتب د. مصطفى بيومي عبدالسلام: تتسم تجربة نجيب محفوظ الروائية بالتنوع والتناحي التي الكث والكيف. هذا التنوع يجعل من عالم نجيب محفوظ الروائي عالماً بالغ الغنى والنراء في الجمالية والديالية على السواء؛ فهذا العالم يجمع مثلما يقول د. جابر عصفور: «بين القص التاريخي والقص الواقعي، ويضم الرمز الجزئي الذي يتخلل النغمة السائدة لعمل واقعي مع الرمز الكلي الذي تتعدد دلالاته». يضاف إلى ذلك ما يقال إن هذا العالم يضم بين جنباته المدارس والاتجاهات المختلفة من واقعية نقدية إلى واقعية وجودية، ناهيك عن الطبيعة والسرالية والعبثية... وكان عالم نجيب محفوظ متخف لكل ما عرفته القصّة من مذاهب واتجاهات».

لكن ما يلغى الانتباه في تجربة نجيب محفوظ الروائية هو احتقائها بأشكال السرد العربي القديم، وتمزجها في الميراث التاريخي لنشأة الرواية العربية المعاصرة، تلك النشأة التي ارتبطت بنموذج القص الأوربي، في «ملحمة القريش»، (1977)، و«ليالي ألف ليلة» (1982) و«رحلة ابن فطومة» (1983).

إن رواية «ليالي ألف ليلة»، التي تشغل اهتمام المرعاة في من الروايات التي تقيم علاقات نصية مع حكايات ألف ليلة وليلة القديمة، وقد يبدو صريحاً ما طرحه روجر آلن من أن «حكايات ألف ليلة والماء أصبحت مثلاً شعبياً للكتاب المحدثين في جميع الأنواع الأدبية، فقد تم تكيف مونتيفانو والصورخا والأقصى كاملة منها في عملية مستمرة تبين الموقع المركزي لتلك الحكايات، وحكايات غيرها، في الوعي الجمعي للعالم العربي».

رغم ذلك، هذه الدراسة لا تشغلها دراسة علاقات التعلق النصي بحكايات ألف ليلة وليلة القديمة، أو استلهام حكاياتها أو مواضيعها في رواية «الليالي»، إذ أقدم النقاد دراسات تعني بذلك، وإنما ينصب الهجسا الأساسي على دراسة بنية الرواية، بمفهوم يعود إلى تقاليد اللغوي فريديان دي سوسور؛ بعبارة أخرى: تحاول الدراسة أن تكشف عن النظام أو البنية الكامنة خلف التحلي السردية، ولكي تتمكّن من ذلك فإننا في حاجة إلى خلفية نظرية موجزة عن البنوية.

نشأت البنوية، في الأصل، من خلال التعارض مع الظاهراتية التي برزت من خلال أعمال الفيلسوف إدموند هوسرل في أوائل القرن العشرين. بحثت الظاهراتية «تجنب السقوط في الفصل بين الذات والموضوع، الوعي والعالم، بالتركيز على الحقيقة الظاهراتية للموضوعات التي تبدو للوعي. فيمكن أن نخطئ أو نوقف الأسئلة عن الحقيقة النهائية أو قدرة المعرفة بالعالم، تحقيق العالم كما يبدو معرفة للوعي».

إن المقاريات الظاهراتية للمعرفة كانت هوسرل يرضق ضمن الأدباء المتاحّة من الموجودات لمحل هذه الكتابة، أي تلك المنقوّرة. لكن الاشتغال الأهم حصل ضمن مقاييم الخوف والقلق اللذين فتحا أمام كافكا ذلك الإحساس بالمشخ، أي ذلك التحول اللغوي الذي يستدعي من أن يستدعيه مواجهة الأسرة ومواجهة رب العمل، وما يبني عليها من متغيرات ضمن الحياة الشخصية للشخص الممشوخ، وتلك العلاقة التي أراد كافكا إيصالها وتتعلق بأثر الأحلام وتحديد الأحلام المزعجة والأرما في حياة الأفراد، الأمر الذي يعني أن كالبوس قد يتحول إلى حقيقة تحول الإنسان شكلاً متحولاً بخلاف شكله الإنساني.

«غريغور ساما» الرخال التجاري، بطل كافكا

كافكا ينام قلقاً وخائفاً على جنبه الأيمن فيتملكه الإحساس المرعب بـ «المسخ»

في رواية «المسخ»، استيقظ من نومه صباحاً بعد سلسلة من الأحلام مزعجة ووجد نفسه قد تحول إلى حشرة ضخمة (ذات بطن منتفخة وأرجل متعددة). هذا التحول على ما يتبين لنا لم يبلغ حواسه الأخرى، وإن اختلفت هذه الحواس بدرجة ما في قدراتها على التركيز أو الاستيعاب، لكنها لم تفقد تركيزها حول المهم والضروري ضمن شريط البناء التذكري الذي مزّ عبر حياته، ورغم أنه حشرة ضخمة فإنه يذكّر أنه لا بد من أن يلحق بقطار الساعة السابعة إلا ربعاً، ولا بد من أن يصل إلى مكتبه ويقوم بواجباته الوظيفية ويعي تماماً وهو مسوخ لأنه إن لم يقم بذلك فسوف يقدف وظيفته، ويعي أيضاً أن فقدانه وظيفته يعني إرهاب الأسرة وعدم القدرة على إعالة أسرة تتكون

من والدين وابنتين. تلك الأمور كلّه يدركها وهو لا يزال في سريريه محاولاً بمختلف الوسائل تحريك جسده والوصول إلى مقبض الباب. ولا شك أن الفعل الدرامي بدأ يأخذ متسعاً جديداً مع محاولات «غريغور ساما» النهوض من السرير بلا بدّين وعلى قوائم متشعبة وجسد منتفخ، بل أن نشاطه الحركي يبدأ في الانتفاخ قليلاً.

عندما يسمع «غريغور» الساعة تدق الساعة مع صيححات أمه وأبيه وشقيقته يدعوها للنهوض من الفراش وللحاق بالقطار الآخر، يتحرّك المشهد الدرامي بفعل تقابلي بين الطرفين، العائلة التي لا تعلم بما جرى له و«غريغور» الذي يريد أن ينهض من فراشه، وهنا يتقدم كافكا بقدراته الفنية في أن يكون هذا الفعل التقابلي الدرامي، صوراً تلك اللحظات الحرجة بين الطرفين من خلال مشاهد صورية مؤلمة، فيعد أن يرفع «غريغور» الكاد جزءاً من جسده ينظر عبر النافذة ويرى الضباب البارد الكثيف محاولاً أن يفكر في كيفية توضيح التباس تحوله وهو يخاطب الضباب الكثيف: «يا أبت... يجب التخلص من فكرة هذا غريغور». وهو يتتابع إقناعي للذات وللطرف الآخر للوصول إلى الحدث الأشد مأسوياً أو بالأحرى ترتيب انسلاخه التام عن الحياة.

هنا لا بد لمساحة الرائي من أن تتسع وتتوسع بواطن الحدث ويكون الفعل الإنساني متكامل في حضوره ضمن الحدث الروائي، لتعجيل الانتقال بالوقائع التي أرادها كافكا أن تسارع إلى نهايتها بعد اختفاء الظلام، وأثارت الخادمة ضوء الغرفة



فوق جثة «غريغور ساما»، تكرر اعتقادات بان محدودية الموجودات ومحدودية الواقع المتكامل تشكلان نقیضاً لسرد الواقع من وجهة النظر للتركيب البنائي، لكن قدرة كافكا على تحريك العوامل النفسية على نحو مركز أضاف إلى البناء القصصي مفاهيم داخلية بين القوى المتصارعة الظاهرية السطحية منها والباطنية العميقة، وذلك كله جعلنا نتمتع بمسح كافكا لـ«غريغوري ساما»، ونتمتع بالم موتة. في المقابل، أنضح كافكا البديل الضدي لهذا المسخ العمبر عن استمرارية الحياة والمتمثل في «غريت» الابنة، الثمرة الناضجة التي يبحث والداهما لها عن زوج صالح...